

## مفهوم السرقات الشعرية بين القدماء

دار مفهوم السرقات الشعرية بين النقاد القدماء بشكل واسع، وشكل احد القضايا النقدية المهمة التي تناولتها كتب النقد والادب القديمة، وللمصطلح تعريفات كثيرة اختلفت على وفق زاوية النظر والعصر الادبي ونوعية الصراعات الادبية القائمة على المنافسة بين الشعراء، فابن رشيق القيرواني يعرفها بالقول: "من اخذ معنى بلفظه كما هو كان سارقا، فان غير بعض اللفظ كان سالخا، فان غير بعض المعنى ليخفيه عن وجهه كان ذلك دليل حذقه"/العمدة.

ويكاد يكون هذا التعريف من اوائل التعريفات التي احاطت بالمصطلح وادقها ، وقد وافقه العسكري في الصناعتين مشترطا ان تكسى المعاني الفاظا وتبرز في معارض تأليفهم ويزاد في حسن تأليفها وجودة تركيبها وكمال حليتها حتى يصبحوا احق بها ممن سبقهم اليها./ الصناعتين. وليست فكرة السرقات جديدة، اذ تناولها الشعراء انفسهم مدافعين عن انفسهم ومبررين، يقول الاعشى:

فما انا ام ما انتحالي القوافي      بعد المشيب كفى ذلك عارا

وقيدني الشعر في بيته      كما قيد الاسرات الحمارا

ويقول كعب بن زهير معترفا:

ما ارانا نقول الا رجيعا      ومعادا من قولنا مكرورا

واخذ طرفة بن العبد قول امريء القيس:

وقوفا بها صحبي علي مطيهم      يقولون لا تهلك اسي وتجمل

فقال:

وقوفا بها صحبي علي مطيهم      يقولون لا تهلك اسي وتجد

وللمتنبي عبارة مشهورة يقول فيها : الشعر جادة فلربما وقع الحافر على الحافر.

الامر الذي يؤكد ان هذه القضية قديمة قدم الشعر نفسه.

وينسب الى جرير والفرزدق الفضل في اثاره الموضوع فنيا بما اثارته نقائضهم من اتهامات متبادله بسرقة الشعر، فيما برر الجاحظ موضوع السرقة بالقول: ان الادباء يحاولون الاستيلاء على ما يجدونه لغيرهم من تشبيه مصيب، او معنى غريب، وبديع مخترع، فيما نظر ابن قتيبة الى هذه القضية باعتبارها فنا، فقال بما يسمى (السرقة المحمودة) التي الم بها الشعراء بعاني القدماء ولاحسنوا فيها بما زادوا عليها، فالبسوها ثوبا جديدا غير ثوبها.

كما نجد التبرير نفسه عند العسكري في قوله انه ليس لمتأخر غنى عن تناول معاني المتقدم وذلك في فصل في كتابه الصناعتين اسماء حسن المأخذ وحل المنظوم، ويحصر السرقة في الالفاظ لا في المعاني لان المعاني مشتركة بين الناس ، ويقر القاضي الجرجاني بقدم قضية

السرقعة ويعدها داءا وعبيا يعتمد في بعض الشعراء على قرائح غيرهم، ويرى ابن رشيق ان باب هذه القضية واسع لا يمكن ان يدعي شاعر السلامة منه.(قضايا النقد القديم:٨٥)

ولا تقتصر السرقعة على ركن دون غيره، فهي ترجع الى المعاني كما ترجع الى الالفاظ، وقد ميز القاضي الجرجاني في كتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه) ثلاثة اضرب من المعاني يوحي تقسيمها الى هذه القضية هي :

- المشتركة العامة: وهي التي لا فضل فيها لاحد على سواه قد سبق، ولامجال للسرقعة فيها، مثل تشبيه الحسن بالشمس والجراد بالغيث او البحر.

- المعاني المبتذلة: وهذه فيها فل للابتداع والاختراع والسبق، لكن تم تداولها حتى صارت معروفة ولا يمكن ادعاء السرقعة فيها كتشبيه الطلل بالخط الدارس والضعن بالنخل وغيرها.

- المعاني المختصة وهي التي يرى ان السرقعة تقع فيها ويعرفها بالقول: " المعنى الذي حازه المبتديء فملكه، احياه السابق فاقتطعه فصار المعتدي مختلسا سارقا والمشارك له محتذيا تابعا"، واذاف حازم القرطاجني الى تلك المعاني عنصر الندرة هي المرتبة العليا من الشعر في استنباط المعاني، وسماها بالعاني العقم لأنها لا تلحق ولا تحصل عنها نتيجة ولا يقترح منها لذا تجنبها الشعراء وتركوا لأصحابها، لكنها مباحة للأخذ والسر يكمن في عجز الشعراء عن تحصيلها.

ويضيف الجرجاني أن المعاني وان كانت مشتركة معروفة متداولة بين الشعراء الا ان قدرة الشاعر على الابتكار ومهارته تميز معناه المشترك، وقد تجعل هذه القدرة والمهارة ما يبدو مشتركا قد اصبح خاصا بالشاعر الذي تصرف فيه واذاف اليه وغيره: "وقد يتفاضل متنازعو هذه المعاني بحسب مراتبهم من العلم بصنعة او ترتيب يستحسن، فتشترك الجامعة في الشيء المتداول وينفرد احدهم بلفظة تستعذب، او ترتيب يستحسن، او تأكيد يوضع موضعه، او زيادة اهتدى لها دون غيره، فيريك المشترك المبتذل في صورة المبتدع المخترع"

وهناك من النقاد المحدثين من يرى ان فكرة السرقات قد ظهرت في فترة تسجيل التراث العربي المروي في البصرة والكوفة ليستخدم في الدراسات اللغوية والنحوية، وان السبب في هذا الوعي المفاجيء يتعلق بالوعي بالحقوق وقضية الامانة لكنه في هذا الوقت كان يتعلق بسرقة نصوص بكاملها لفظا ومعنى، وكانت لدى الفرزدق ردة فعل قوية الجأته الى القضاء./مقالات في تاريخ النقد العربي/ داود سلوم.

في حين يبزر احد النقاد المحدثين اسباب ظهور هذه القضية بالقول:( ولقد تغير الموقف بعد ظهور الاتجاه الجديد في شعر جماعة المحدثين الذين استخدموا الوان البديع في اشعارهم، ولم يتقبل النقاد حركة التجديد هذه بسهولة ، فتعقبوا الشعراء في اشعارهم للنيل منهم، فاخذوا يعيبون اللغة التي استخدمها الشعراء في اشعارهم ، واتهموا اساليبهم بالضعف ، ولم يقف الامر عند هذا الحد، فقد اخذ النقاد يتهمون الشعراء المجددين بالسرقعة، وانهم يتكئون في اشعارهم على القداماء، وحاول بعض النقاد تبرير ذلك):(قضايا النقد القديم- محمد صايل حمدان:٨٥).

ونحن نرى ان قضية السرقة بوصفها قضية لا تعني بالضرورة السرقة المحضنة، بدليل تحديد النقاد القدماء لها في حدود ضيقة ادراكا منهم للتشابه في المعاني السائدة والمرجعية اللغوية التي تجمع الشعراء على اختلاف ازمانهم، وجزء من هذه القضية يكمن في قصور المصطلح النقدي العربي القديم، في حين يمكن تبرير جزء منها بالتأثر الفطري بالنموذج القديم عند العرب، والموقف الصدامي مع المحدث الذي افرز جملة من القضايا النقدية الفنية ومنها قضية السرقات، ولا يخفى على دارس الادب العربي الحملة التي تعرض لها شعراء كبار بدوافع المنافسة الادبية التي تخرج عن حدود الموضوعية بسبب التنافس الشخصي الذي تغذيه البيئة الاجتماعية والسياسية التي انعكس تأثيرها على العلاقات بين الشعراء وخصومهم ، والملاحظ ان فكرة السرقة بحد ذاتها قد تحولت الى وسيلة لتصفية الحسابات بين الخصوم على نحو ما وجدنا في المؤلفات والاراء والنقود التي وجهت للمنتبي لاسيما عند العميدي في كتابه(الابانة عن سرقات المنتبي) والصاحب بن عباد في(الكشف عن مساوي المنتبي) وغيرها، فالمنتبي كان شخصية جديلة في موهبته وطبيعته وعلاقاته مع غيره، فقد كان يتعالى بشعره يسعى للتميز في علاقاته مع ذوي الشأن، ما جعله خصما للكثير من المتحلقين حول هؤلاء من الشعراء والنقاد، الى جانب جرأته في توجيه سهام الشعر الى الدرجة التي مس فيها المعايير الدينية التي كان يتقرب بها بعض رموز عصره من الحكام والناس ، الى الدرجة التي التقى فيها الغرور الشخصي مع هذه الافكار حتى رمي بشتى التهم، وكثرت خصوماته ومواجهاته التي افرزت نتاجا شعريا ذي طابع ذاتي ارتفعت فيه ال(أنا) التي طبعت شخصية المنتبي، وكان من نتاج ذلك ان ظهرت المصنفات والرسائل التي تتهم المنتبي بالسرقة، والتي وضع اصحابها اسس السرقات بوصفها معيارا نقديا، وان كان البعض منها قد اتسم بالمبالغة والتحامل والاندفاع ، ومنها:

- الرسالة الحاتمية في مأخذ المنتبي المعيبة- الحاتمي : التي حاول مؤلفها ترتيب اصول ابواب السرقات وتحديد مصطلحاتها في ١٩ مصطلحا منها الانتحال والانحال والاغارة والمعاني العقم والمواردة وغيرها.
- الكشف عن مساوي المنتبي – الصاحب بن عباد: وتجاوز في اتهام المنتبي بأنه يسرق من القدماء الى السرقة من المحدثين ومنهم البحتوي وابي تمام، ويسوق الامثلة من اشعارهم مما يقصره على باب السرقة .
- المنصف في الدلالات على سرقات المنتبي- ابن وكيع التنيسي: قسم السرقات الى عشرين قسما، منها عشرة فيما يدل على فطنة الشاعر، وعشرة سرقات قبيحة، ويمتاز منهجه بتجاوز الابيات المكررة والمعاني التي يكثر استعمالها ويجعلها مشاعة بين الشعراء، ويحكم على ابيات المنتبي بالقصر او الاخذ مع تعليل الحكم، متناولا الديوان قصيدة قصيدة.

وافرزت هذه الخصومة الى جانب ردها المكتبة النقدية بالمؤلفات نوعا من المعيارية في تناول قضية السرقات افضت الى تمييز انواعها التي تختلف بين النقاد وقد تلتقي مع اختلاف المصطلحات التي تستعمل.

انواع السرقات:

يرى ابن الاثير في كتابه المثل السائر ان السرقة ثلاثة انواع هي:

- السلخ: وهو اخذ بعض المعنى.

- المسخ: تقصير الأخذ عن المأخوذ.

- النسخ: اخذ المعنى واللفظ معا دون زيادة.

واضاف اليها اخذ المعنى مع الزيادة عليه وعكس المعنى ضده او بعضه.

اما القزويني فقد جعلها نوعين، ظاهر: وهو اخذ المعنى كله او بعضه مع اللفظ، وان كان المأخوذ كله دون تغيير نظمه فهو مذموم ويعد سرقة محضة، ويسميه(نسخ وانتحال)، اما ان غير النظم او اخذ بعض اللفظ فهو(تغتره ونسخ)، والنوع الاخر: غير الظاهر ويعني تشابه معنى الاول والثاني وادخل معه النقل والقلب واطاف اليه الاقتباس والتضمين.

وهناك من قسم السرقة الى معنوية ولفظية وكما هو موضح:

- المعنوية: وتمتاز بالخفاء وصعوبة اكتشافها، ومنها الاختلاس والالمام، النظر والملاحظة ، والمجود وغيرها/ (للاستزادة من انواعها العودة الى كتاب حلية المحاضرة للحاتمي).

- اللفظية: وتتمثل فيما يسمونه الاصطراف(وهو الاجتلاب والاستلحاق)، والانتحال، الغصب، وسماها ابن الاثير النسخ والانتحال.

وهناك عدد كبير من المصطلحات التي تداولها القدماء في كتبهم وتبعهم المحدثون، وهناك من قسمها على وفق مبدأ الموازنة كما فعل الامدي في (الموازنة) وابن وكيع في(المنصف للسارق والمسروق منه)وقسمت الى :

- المذمومة: وينطوي تحتها(السرق، الغصب، الاغارة، الاصطراف، الاهتدام، الالتقاط، التلفيق، المرافدة)

- المحمودة: وهي تسعة منها الاجتلاب والاستلحاق وغيرها.

وبعيدا عن العشرات من المصطلحات والفروق اللغوية الدقيقة بينها فان مصطلح السرقة اتخذ صورته المكتملة عند القاضي الجرجاني في كتابه (الوساطة بين المتنبى وخصومه ) ويرى انه داء قديم وعيب عتيق مبرئا ساحة المتنبى وغيره من المحدثين منها، وبين ان كثيرا من المصطلحات التي دارت في الكتب التي تناولتها واستخدمها النقاد ليست سرقات بالأصل، وحذر من استعمال المصطلح بشكل عشوائي واشترط فيها ان تكون في اللفظ والمعنى معا لاسيما المعاني الخاصة، والتأكد من ان الابيات التي وردت فيها دقيقة سليمة الرواية وليست مما غلط فيه الرواة، وحصر اربعة مصطلحات حملت معنى السرقة وهي:

- الادعاء: هو ان ينسب الشاعر لنفسه شعر غيره.

- الانتحال: ان تنسب لنفسك قول غيرك

- المصالفة اوضحه ابن رشيق بالقول "لو تناول شاعر عبارة مشهورة مثل(لقد طمح الطماح) (ليلبسني ما تلبس) وهي عبارات وردت مخصوصة عن شاعر بعينه ابتدعها وان ذكرها ولم ينسبها لكان الاخذ سرقة

- النسخ: ولا يكون الا في اخذ اللفظ والمعنى جميعا او اخذ المعنى واكثر اللفظ

اسباب السرقات:

حددها ابن سلام وتبعه من جاء بعده بالاتي:

- قلة اشعار القبائل ما اضطرهم الى النحل والتطوير ليلتحقوا بالقبائل ذات المجد الشعري على نحو ما قامت به قريش التي راجعت اشعارها فوجدتها قليلة فقام البعض بتأليف الاشعار ونسبتها الى شعراء سابقين وكذلك نسبة اشعار موجودة اليهم وهذه هي السرقة.

- الصراع السياسي الذي كان الشعر أدواته وساحته لاسيما في العصر الاموي الذي تحول الصراع السياسي الى حالة مألوفة اذكت العصبية القبلية التي كان من ادواتها الفخر بالمجد الشعري قبل الاسلام.

- دور الرواة في التزييف والتزويد لاسيما ابناء الشعراء في البوادي الامر الذي جعل اكتشافه صعبا على نحو ما قام به داود بن متمر بن نويرة حين التقاه بعض الرواة في البصرة وكان يروي شعر فكان يتزيد في الاشعار مما ليس لمتمم محتذيا كلامه فاذا هو دونه في الجودة وان كان قد ذكر المواضع والوقائع التي ذكرها متمم ، ومن نماذجه ما ذكره الاصمعي من ان حفيد النمر بن توبل الشاعر كان قد روى:

اهيم بدعد ما حييت فإن امت أوص بدعد من يهيم بها بعدي

وان الناس تزوي هذا البيت للشاعر نصيب../ مصادر الشعر الجاهلي- ناصر الدين الاسد.

- الاعجاب بالعمل الادبي الذي دفع اصحاب النفوس الضعيفة الى سرقة وانتحاله اما من غير مبرر فيه او على سبيل الاستشهاد فلا ضير في ذلك.

مصادر الدراسة:

- الوساطة بين المتنبي وخصومه/ القاضي الجرجاني

- العمدة/ ابن رشيق القيرواني

- منهاج البلغاء / حازم القرطاجني

- المثل السائر/ ابن الاثير

- الشعر والشعراء/ ابن سلام
- حلية المحاضرة/ الحاتمي
- قضايا النقد القديم / محمد صايل حمدان
- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها / ناصر الدين الاسد
- مقالات في النقد العربي / داود سلوم